الفكر الأدبي العربي المعاصر

بين ثقافة المقاومة ومقاومة الثقافة

محمد خرماش

الفكر الأدبي أو التفكير في الأدب هو إعمال الفكر فيما يتعلق بإنتاج الأدب نصا ومعرفة، أي فيما يتعلق بنظرية الأدب، بالنقد الأدبي وبالنصوص الأدبية إنتاجا واستهلاكا. ويمكن القول بأن هذا النوع من الفكر يتولد مع الأدب ويسايره، وهو قديم قدم الأدب نفسه، ويمكن أن يروده أحيانا أو يتقدمه.

ومن المعلوم أن الأدب خطاب يجمع بين الفن والفكر أو بين المتعة والفائدة، ونظرا لأنه يعتمد الخيال كما يعتمد الوقائع والحقائق، ويستنفر الانفعالات والعواطف كما يستفز الأفهام والأوعاء، فقد اختُلف في تقديره وتقويمه بحسب غلبة هذا العنصر أو ذاك أو بحسب وجهة النظر التي ينطلق منها الكاتب أو التي ينطلق منها القارئ أو الناقد، ولذلك فهو الخطاب الذي يمكنه أن يتمثل سائر الخطابات في داخله أو من خارجه. ومن ثم تتأتى صلته بالمفهوم العام للثقافة ويقوم دوره الحيوي كمكون أساس من مكوناتها. يتجلى هذا في العصر الحديث مثلا حينما تجد جميع التيارات الفكرية أو التوجهات الثقافية تركب موجة الأدب من أجل تمرير خطاباتها وتبرير مواقفها وتأكيد نزوعاتها ونزعاتها، إيمانا منها بان الأدب هو بؤرة الثقافة ومركز تقاطعاتها والممثل الجامع لروح العصر كما يقول ديلتي".

وبما أن مفهوم الثقافة قد انحدر اليوم من المعنى النخبوي أو المعنى التقويمي إلى المعنى الشعبي أو معنى السلوك العام والقناعات السائدة في أوساط معينة، فإن الأدب قد انتابته هذه الشعبية كذلك وصار لزاما عليه أن ينخرط في دواليب الثقافات المتداولة إذا أريد له القبول والبقاء. بيد أن ما يروج في الفكر الأدبي العربي يمكن تحديده على العموم في مجالين كبيرين متعارضين ومتقاطعين في نفس الوقت :

1 – الانشغال بالأدب ونقده على اعتبار أن الأدب خطاب متفرد له خصوصيته أو خصوصياته، ويمكن معالجته أو التعاطي معه بوسائل ومناهج معينة ولأغراض ومقاصد خاصة.

2 - الانشغال بالأدب في علاقته بالميادين الأخرى على اعتبار أنه يسترفد مادته من الواقع والحياة كي يتمثلها ويقربها للقراء، ولذلك فهو جبهة ساخنة وديناميكية من جبهات التفاعل الحضاري في

العصر، ولا يمكنه أن يدير ظهره للمعطيات الجارية بدعوى الفوقية (تمثيل القيم الخالدة – التعالي عن الواقع والحالات المحدودة – استقلالية الخطاب واكتفاؤه بأدبيته) أو الاستعلاء أو الاستقلالية.

أما في المجال الأول فيتم التركيز – ولأمر أو أمور ما – على مفهوم الأدب ومكونات الخطاب الأدبي وكيفية التعاطي معه، وهو شيء جميل ومفيد لأن الفكر الأدبي معرفة راقية ورائعة ولا يمكن للأدب الجيد والمتقدم والصحيح أن يتحقق أو يُفهم أو يتطور بدونها ؛ ومن ذلك مثلا ما أنجز وينجز في البحث عن أدبية الأدب وعن مكونات النص الأدبي وعن القيم الجمالية والفنية التي يتضمنها، وتجدر الإشارة في ذلك إلى الدراسات الكثيرة في نظرية الأدب، في الشعرية، في البلاغة والأسلوبيات الجديدة، في لسانيات الخطاب، في السرديات، في سوسيولوجيا الأدب، وفي القراءة ونظريات التلقي وما إلى ذلك لكن هذا المجال على أهميته وعلى زخم المعارف الجميلة والأساسية التي يقدمها، يعاني من إكراهات ملحوظة فيما يتعلق بالوقوف بالأدب عند الأدبية ومتطلباتها، وكأنه شق من الأحلام العجيبة أو الرؤى العظيمة تظهر وتغيب وقد تتحقق أو لا تتحقق، نجد فيها متنفسنا ونبثها لواعجنا ومطامحنا، وليس لها أو لنا أن نطلب منها أو نطالبها بأكثر من ذلك، وفيه كفاية لأن الأدب في كينونته وسيرورته ما كان ليخاطب الأفهام وإنما ليحرك المشاعر ويرسخ المثل والقيم ويَخْلُدَ عبر الأحقاب والأزمان. ومن ثم لا يجوز إخضاعه لمنطق الحق والباطل أو الصدق والكذب أو الخطإ والصواب، وإنما هو احتمالي وإنساني وجميل، وما عدا ذلك قد يكون فيه تعسف عليه أو مصادرة لحقه وحقيقته ...

وبهذا الصدد يدور المدار في الفكر الأدبي المعاصر ومنه الفكر الأدبي العربي حول قضية أعتبرها فيصلا في الموضوع، وهي قضية المرجعية أو المعنى والمرجع في النص الأدبي... (ومنها المنطلق إلى علاقة الأدب بثقافة المقاومة ومقاومة الثقافة).

ومن المعلوم أن المعنى هو ما يُفهم من استعمال اللغة في سياق زمكاني معين، أما المرجع فهو المحددات الخارجية التي تقع عليها المواصفات التمثيلية، ومن ثم يمكن أن يكون لجملة معنى ولا يكون لها مرجع كحديثنا مثلا عن الرجل الذي اخترق الشمس، فنحن نفهم ما نقول ولكن لا مرجعية لما نقول. وهذا ما جعل البعض يقول بأن صورة الواقع الذي يرتسم في الذهن صورة لغوية فحسب لأن الكلام لا ينقل إلا كلاما. أما الذين يدافعون عن المرجعية فيرون أن الكلام متكون مما يعنيه في الواقع الموضوعي، لكن الفكر الذي هو طاقة عاملة في التحصيل والاستيعاب هو الذي يبني المرجعية بجميع تمفصلاتها، ومن ثم الاختلاف في التصور بالنسبة لنفس الواقع مثلا(1). والمشكلة في الأدب أنه يتجاوز النظام السميائي (دلالة العلامات اللغوية) إلى النظام السميائي (دلالة التراكيب النصية)، وبذلك لا تكون المرجعية فيه محكومة بمطابقة الدلائل لمحتوياتها فقط، وإنما أيضا بقوانين إنتاجية خطابه وممكناتها،

الأمر الذي يّعقد مسألة المرجعية إلى حد كبير، ويشجع القائلين بان الأدب لا مرجعية له أو له مرجعية اصطناعية خاصة به، ومن ثم لا يمكنه أن يؤدي وظيفة تذكر خارج اشتغالاته الأسلوبية المهيمنة، ولا يخفى ما في ذلك كله من غلو لأن عملية الاندلال Signifiance أو التنصيص Textualisation التي يتميز بها الخطاب الأدبي تمكنه فعلا من إقحام المرجعي في الأدبي بكيفية مّبيتة من أجل إنتاج بنية ضامة تشهد تقاطعهما وتفاعلهما.

وعلى المتلقي الحصيف أن يمسك براس الخيط كي يصل إلى نقطة البداية فيتبين المرجع الأساس لما هو بصدده، لأن وظيفة القراءة والتأويل – كما يقول ماريو فالدس - Mario Valdès – هي إنتاج نوع من الفهم، وبالتالي تقاسم أنواع من الدلالات المحددة مع قراء آخرين، فلابد إذن أن نتساءل مع ذلك عمَّن فهم وماذا فهم بالضبط(2). وإذا كان الخطاب الأدبي متروع التداولية (Dépragmatisé) في صيغته النهائية، فإن "فعل القراءة" هو محاولة يقوم بها القارئ المحسوب حسابه أصلا في الكتابة، والمهيأة له توجيهات وإشارات مساعدة في النص من أجل إعادة تداوليته (Répragmatiser) ومعرفة حقيقة مرجعيته الأساس(3). وهذه جبهة داخلية يقاوم فيها الأدب من اجل إثبات ذاته وحتى لا تسلب مرجعيته الاجتماعية ويُفَرَّغَ من دوره التاريخي فيُقصر على الدوران في الفراغ، ولا شك أن بعض المغرضين أو بعض الذين في قلوبهم أو في عقولهم شيء قد يجدون أو قد وجدوا في تلك الحجج التي هي كلمات حق أريد بها باطل، منفذا سهلا للافتكاك من المسؤوليات التاريخية، والتنصل من ضرورة تحديد الموقع الصريح في خضم الحركية الثقافية الدائبة، بدعوى أن مهمتهم تقف عند حدود النص الأدبي وأن ذلك قد يفسد على الأدب أدبيته أو أن الأديب غير ملزم به، لانخراطه فيما هو أعمق وأشمل.

ومن الواضح أن في هذا التعويم أو التعميم في الفكر الأدبي مناصرة – ولو غير مقصودة – لثقافة الشك والتخاذل والهروب إلى الأمام، وتعبئة مضادة لتدمير أو تحييد القلاع الثقافية الصامدة، ومنها قلعة الأدب الرصين الحصين الذي يحتمي به الإنسان في مواجهة كثير من السلبيات، لاسيما وأن الأديب العربي مثلا لا يحمل همَّ الكتابة فقط، وإنما يحمل همَّ نفسه وهَم أمته، وهَم ما تحمله كل لفظة عربية أو تركيب عربي يستعمله، ومن الأكيد أنه وهو يبني استراتيجياته الفنية يبني في طياتها مقصديته المرجعية، ومن ثم ينتظر من قارئه أن يفعل على مستوى القراءة مثلما فعل هو على مستوى الكتابة كي يتم التواصل الأدبي التام بأبعاده الجمالية والمرجعية في نفس الآن.

الجبهة الثانية التي يناضل فيها الأدب والأدباء هي جبهة الصمود أيضا في وجه الهجمات الشرسة التي يتعرض لها الأدب كله، بدعوى أنه لم يعد نافعا في زمان الكلمةُ فيه لثقافة الصورة وثقافة الرقميات والمعلوميات والإعلاميات والعولميات وما إلى ذلك... وهو ما يشكل أزمة الثقافة المعاصرة المستفحلة في مجال العلوم الإنسانية برمتها والتي أصبحت تعتبر قاصرة عن تمكين إنسان اليوم من الخبرات اللازمة في دنيا السعي والكدح والتدافع، ولذلك أصبح خريجو الكليات النظرية بما فيها أو في مقدمتها الآداب، يعانون من التهميش والإحباط وربما الندم على تضييع أزهى سنوات العمر في ردهات مؤسسات لا

تحدي الدراسة فيها فتيلا أمام مقتضيات العصر الضاغطة، ولسان حالهم ينحو باللائمة على من غـــرر بهم أو من يأخذهم بما لا ذنب لهم في اختياره...

ومن الجدير بالذكر أن مثل هذا قد حدث في مراحل مختلفة من عصور الفكر والثقافة كمرحلة النزعة الوضعية وسيادة الفكر التجريبي، ومرحلة الاكتشافات الجغرافية والاختراعات العلمية والنهضة الصناعية، ومرحلة الفلسفة المادية الوجودية أو المادية الاقتصادية، وفي كل مرحلـــة كانـــت الآداب والعلوم الإنسانية تخرج بأصح مما كانت عليه لتثبت أنها جزء لا يتجزأ من كينونة الإنسان الـــذي لا يمكنه أن يستغني عن حقيقة من حقائقه. ومن هنا تتأتى مشروعية الحديث عن دور الأدب في تـــشييد صروح الحضارات، ودوره التثقيفي في تكوين الشخصية السوية المتوازنة التي تدرك ما لها وما عليها، وتلك هي أؤكد المهمات المستعجلة التي ينبغي أن يتحملها الفكر الأدبي بكفاءة وإقناع، من خـــلال رصد جميع التحولات الجارية في المعرفة الأدبية والإنسانية التي لا يمكن بحال أن تُعارَض فقط بمشاكل الشغل والاقتصاد والخبز والاستثمار، والتي يمكنها أن تُسهم في تجاوز الأزمـــات وحـــل المعـــضلات وتقريب الإنسان من الإنسان. فالأدب الجيد جيد في التعبير وجيد في التفكير، أي انه يعلم الإنـــسان كيف يستفيد من نعمة النطق، وكيف يستثمر الكلمة في إنعاش النفوس وتهذيب العقول، وفي البحث عن أنجع السبل لتنمية التواصل وضبط الخطاب، وهي جوانب مهمة وخادمة لأغراض حيوية وضرورية في كل زمان ومكان. وقد كانت العملية التربوية التهذيبية تعرف في وقت ما بالتأديب، وكان المؤدبون يهيئون الأمراء والأعيان لتحمل المسؤوليات الجسيمة في الدولة عن طريق الأدب الراقـــي والنـــصوص السامية وما يتصل بهما، كما كان مفهوم الأدب يشمل كل ما من شأنه أن يرقى بالإنسان في جوانب حياته المختلفة بما فيها المهن والحرف والسلوك والمعاملات وأساليب العيش وما إلى ذلك... وبوســـع الأدب الرفيع دائما أن يفعل في حياة الناس ما لم تستطعه وقد لا تـــستطيعه الجحافـــل والمـــؤتمرات والمختبرات.

وعليه فالأدب منافح قوي ومقاوم شرس يستطيع التلاؤم مع المتغيرات الثقافية والتاريخية لتقريب المشاعر والأفهام من مراكز الحق والخير والجمال، في الطبيعة وفي الحياة وفي الإنسان، ليس فقط لأنـــه يساعد على فهم العالم وتغييره – كما قال إرنست فيشر – ولكن لأن به سحرا خفيا يجعلـــه رائقـــا وشائقا حتى وهو يتصدى لتصوير أو تفسير الأشياء التي قد لا تكون مقبولة أو جميلة في طبيعتها أو في أصلها (ضرورة الفن ص : 14 – 16)، ولذلك لا يمكن التقليل من شأنه كما يريد الـــبعض في هـــذه الأيام،لأن التقدم الحقيقي يرافقه دائما وعي صحيح بقيم الإنسان الذي هو الفاعل الأساس في ســـائر المجالات، وقد أثبت الأدب قدرته على رفع التحديات الحضارية، وتقديم الأجوبة المناسبة للإشكاليات العويصة، وما من مظهر من مظاهر الحياة إلا وقد ساهم الأدب في صنعه أو في تمثُّله وتمثيلـــه، فهـــو إسفنجة ثقافية كبيرة، يتعامل بمرونة مع كل المستجدات ويتناول كل الموضوعات بالبحث والـــصياغة وإعادة الإنتاج، ومن الأكيد أنه سينتصر في معركة المقاومة الثقافية كما انتصر يومـــا مـــا في ثقافـــة

المقاومة، وليس بغائب عن الأذهان أن المنعطفات الكبرى في تاريخ البشرية الحديث والمعاصر قد كان من ورائها مفكرون وأدباء وحقوقيون وعلماء اجتماع وغيرهم.

استنتاجات

ونخلص في النتيجة إلى أن الأدب مخلوق مقاوم بامتياز، يقاوم ثقافة السلبية والتحلل والانكفاء على الذات، ويجاهد في مجال الفكر الحديث من أجل فرض حقائقه المرجعية التي لا يمكن إنكارها أو التنكر لها مهما بعُدت أو بهَتت ضمن إجراءات الأسلبة والتنصيص، وهذه الحقائق هي في الأدب الرفيع حقائق الحق والخير والقيم الإنسانية الخالدة مثل العدل والإنصاف والمودة والمساواة والتقارب والتفاهم والحوار، وبالطبع فان الأديب بثقافته ونبله وإحساسه وحكمته أول الغيورين على هذه المبادئ، وأول المدافعين عنها والمنادين بها، وقد قرأت مرة لأحد المقدرين لقيمة الادب وخطورته في مغرب القرن الماضي قوله : "لو كان الوحي يترل لترل على ألسنة الشعراء " (محمد بوجندار : جريدة السعادة، ع : 16 – 3 – 1923).

والوحي بالطبع حقائق خالصة وتعاليم سامية تنظم حياة الإنسان الروحية والثقافية والاجتماعية وغيرها. ولأن الأدب أدب، لا يمكنه أن يكون خطبة حربية أو بيانا حركيا أو حزبيا أو سياسيا أو عسكريا كما نجد في العديد من الكتابات الاندفاعية أو الإيديولوجية، ولا يمكنه أن يتفرج فقط من شرفته الأنيقة كما يريد له البعض أو الكثير، ولكن من حق الجميع أن يجد فيه فسحة جميلة لتراسل المشاعر النبيلة ولتحقيق اللقاء الضمني بين السطور في عالم القيم الكبرى والمبادئ العظمى، وبدلا من الحديث عن ثقافة الإرهاب أو إرهاب الثقافة ينبغي الحديث عن ثقافة الأدب الكبير، ثقافة الإنسان.

هوامش

1-ينظر محمد خرماش : مفهوم المرجعية وإشكالية تأويل النص، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ع : 12 / 2001، ص : 53 وما بعدها.

2- Mario Valdès, De l'interprétation … in théorie littéraire (g. e) puf 89 , P 275

3- Wolfgang Iser : l'acte de lecture , Théorie de l'effet esthétique, Mrdaga,1985,p175,